دور الإمام الصادق عليه السلام في إرساء معالم الفكر الإسلامي

أ. م. د. عامر عبد الأمير حاتم
جامعة بغداد/ كلية التربية (ابن رشد)

تلخيص البحث:

إنَّ سيرة الأئمة الاثنى عشر من أهل البيت عليهم السلام تمثّل المسيرة الواقعية للإسلام بعد عصر الرسول، ودراسة حياتهم بشكل مستوعب تكشف لنا عن صورة مستوعبة لحركة الإسلام الأصيل الذي أخذ يشقّ طريقه إلى أعماق الأمة بعد أن أخذت طاقتها الحرارية تتضاءل بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، فأخذ الأئمة المعصومون عليهم السلام يعملون على توعية الأمة وتحريك طاقاتها باتجاه إيجاد وتصعيد الوعي الرسالي للشريعة ولحركة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وثورته المباركة، غير خارجين عن مسار السنن الكونية التي تتحكم في سلوك القيادة والأمة جمعاء .

ويختص هذا البحث بدراسة دور الإمام الصادق عليه السلام في إرساء معالم الفكر الإسلامي، فكل مذاهب المسلمين مَدينة إلى علمه وفقهه، كما أن الحضارة الإنسانية في عصرنا هذا ترى نفسها مستظلة بظلال علومه ومعارفه .

وقد قسمتُ هذه الدراسة إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة. تحدثتُ في المقدمة عن مكانة الإمام الصادق عليه السلام في حياة المسلمين، لما يمتلكه من علوم إلهية خصّه الله بها ورفعه إلى أعلى مراتب الإحاطة بالمعارف الدينية والدنيوية.

ثم عرجتُ على المبحث الأول عن دور الإمام الصادق عليه السلام في إنشاء جامعة إسلامية كبرى كان لها الدور الأكبر في إحياء معالم الدين الإسلامي ، ثم المبحث الثاني الذي ركّز على دور الإمام الصادق عليه السلام في إرساء معالم الفكر السياسي الإسلامي، وصياغة أسسه بما تتطلبه كل مرحلة من مراحل الحياة .

ثم المبحث الثالث الذي تناول دور الإمام الصادق عليه السلام في إرساء معالم الفكر الاجتماعي الاسلامي، وخلق مجتمع إلهي تسوده العدالة والأخوة الصادقة وبناء الجماعة الصالحة التي عليها يتكئ دعائم الإسلام الأصيل .

ثم عرجتُ على الخاتمة لاستخلص منها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة .

المقدمة :

يُعتبر الإمام الصادق عليه السلام زعيماً روحياً عالماً بالكتاب والسنّة، مجتهد في استنباط الأحكام في ضوء القرآن الكريم فحسب، بل يعرفونه إلى جانب ذلك عالماً عبقرياً استقى علومه من منهل الرسالة العذب، فبلغ بنبوغه واجتهاده وقدرته، المنزلة الرفيعة في حل مسائل الفقه وفي الاتيان بنظريات رائدة سبق بها عصره في الفلسفة وعلوم الطبيعة والفلك، وجاءت القرون الطوال من بعده فأثبتت صدق نظرته بعد تجارب ومكتشفات أجراها علماء العصور، ناهيك عن المسائل الالهية والانسانية والاجتماعية والحضارية التي فاتت فلاسفة عصره.

والإمامة في نظر الإمامية أصل من أصول الدين، ينيطها الله العلي العظيم بخاصة عباده وأوليائه. فالإمام عندهم هو حجة الدين القيِّم على شؤون المسلمين من أتباعه، وهو بهذه الصفة، مؤهل لشرح الرسالة وحمل الأمانة بفضل علمه بأسرار الكتاب والسنّة. وهو الذي يقوم على تطبيق الشريعة بما يكفل العدالة ويحقق الخير والسعادة لمجموع أتباعه من المسلمين، والإمامة امتداد للرسالة، ونيابة عن النبوة، وهي صورة صادقة لفضائل السمو والجلال. والإمام هو الذي يفسر الكتاب والسنّة تفسيراً يهتدي به المسلمون إلى المحجة الصحيحة والطريق السوي الذي رسمه الله تعالى للصالحين من عباده.

وعلوم الإمام في نظر الإمامية علوم إلهية، ولاسيما العلوم التي خصّ الله بها أصفياءه ورفعهم إلى أعلى مراتب الإحاطة بالمعارف الدينية والدنيوية. والإمام ينطوي على صفاء نفس وطهارة سريرة، وهو يستضيء بقبس من نور الباري جلّ شأنه.

والإمام الصادق عليه السلام هو سادس الأئمة الاثنى عشر. تلقى العلم عن أبيه الإمام محمد الباقر عليه السلام فترة غير قصيرة في مدرسته بالمدينة المنورة، وكان إذ ذاك في حداثة العمر، ولكنه أقبل على الأخذ من علوم الدين وعلوم الدنيا حتى أصبح باجتهاده وإرادته أعلم أهل زمانه، واكثرهم بصراً بالقضايا الالهية والدنيوية، وأشدهم زهداً في أعراض الدنيا، ولا غرو أن يزدحم ببابه العلماء، حتى بلغ عدد رواد مدرسته والمتتلمذين عليه أربعة آلاف.

إن إضاءة التاريخ الاسلامي، والكشف عن أصول حضارة الاسلام، وتجلية الفكر العلمي والروحي والتقدمي لأئمة الاسلام، ودراسة حياة أعلام المسلمين دراسة منهجية قائمة على حقائق التاريخ، لهو فرض على كل قادر عليه، مستطيع له، وواجب محتوم

على العلماء والمفكرين المسلمين. فتقديم الاسلام في صورته الحضارية واجب الجيل نحو أجيال الشباب المسلم، الذي بعدت حياته عن مصادر الفكر الاسلامي. وفي تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي وحياة أئمة الإسلام الكثير من المفاخر التي يقف الإنسان إمامها مذهولاً .

وإذا كان علماء الاستشراق في أوربا قد عنوا عناية كبيرة بالكشف عن أصول حضارة الإسلام، فما أجدر بعلماء المسلمين أن يجردوا القلم للإسهام في هذا الواجب المحتوم بحظ من الحظوظ على قدر ما يستطيعوا.

والغرب الذي قد طالما أفاد من علوم الشرق وحضارته، وانتفع بها، والذي تعدّ مدنيته مدينة للمدنية الاسلامية منذ عهد طويل بديون كثيرة لا يفوت علماؤه أن يبينوا كيف عملت الحضارة الاسلامية أعمالاً جادة من أجل التقاء الحضارات، وامتزاج الثقافات والإفادة من كل ما وصلت إليه الانسانية في تاريخها الطويل من أجل رفاهية الانسان، واستمرار التقدم، ومن أجل التعرف إلى مقومات التقدم والنهضة والمعرفة، والحصول عليها، وبلوغ الغاية في سبيل ذلك كله.

فليس إذن إمام الجامعات العربية والإسلامية إلا أن تسير في الطريق، وتؤدي ما عليها نحو العلم نفسه ونحو الأجيال القادمة التي تريد أن تعرف كل حقائق التاريخ ودروسه ومعجزاته ومنجزاته خلال العصور السالفة.

وإذا ذكرنا الإمام الصادق عليه السلام ، ذكرنا أرفع منقبة، وأجل مأثرة، وأعظم شخصية من الشخصيات الرائدة في تاريخ الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية، وفي نشأة المذاهب الفقهية التشريعية لأئمة علماء المسلمين.

وحدِّث عن الإمام الصادق ولا حرج ، حدِّث عن سليل بيت النبوة ووارث فضائلها ومناقبها ومفاخرها وعلومها وحكمتها.

حدِّث عنه في ورعه وزهده وفي دينه وتقواه، وفي علمه وفقهه، وفي عراكه للأحداث ونضاله للخطوب وفي مجابهته الظلم ومقاومته للطغيان، وفي خبرته بالحياة، ومعرفته العميقة بالزمان وناسه، وفي حبّه للسلام، وكراهيته لاراقة الدماء، بل في كل محمدة من المحامد التي يُذكر بها الناس ويُعرف بها عظماء التاريخ.

وماذا نقول في الإمام الصادق جعفر، وقد قال عنه الإمام مالك رضي الله عنه (١٧٩هـ) : ((ما رأت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر، أفضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً، وعبادة وورعاً))[١] .

وتحمّل الإمام الصادق عليه السلام مسؤولية مواصلة المسيرة في ظروف معقدة وصعبة للغاية، فمهمته عليه السلام في هذه الظروف المظلمة تتلخص في طرح الفكر الاسلامي الصحيح، أي تبيين الاسلام كما جاء في القرآن وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع مكافحة كل الانحرافات والتشويهات الجاهلية والمغرضة، وكذلك التخطيط لاقامة نظام العدالة الالهي.

المبحث الاول

دوره عليه السلام في انشاء جامعة اسلامية كبرى

من الخدمات الجليلة التي أسداها الإمام الصادق عليه السلام إلى العالم الاسلامي، هو تجديده وبعثه لجامعة أهل البيت عليهم السلام على نطاق واسع لم يعهد له نظير في تلك العصور، فقد فتحت هذه المؤسسة العلمية آفاق الفكر والوعي، ونشرت ألواناً من العلوم والمعارف لم يعرفها المسلمون ولا غيرهم من قبل.

فقد كان عصر الإمام الصادق عليه السلام عصر النشاط الفكري والثقافي، وقد حدثت في ذلك العصر حركة علمية منقطعة النظير في المجتمع الاسلامي، ونشأت العلوم المتعددة؛ سواء العلوم الاسلامية، مثل علوم قراءة القرآن والتفسير والحديث والفقه والكلام...؛ أو العلوم الانسانية العامة، مثل علوم الطب والفلسفة والنجوم والرياضيات...؛ لدرجة أنه كل من كان له بضاعة فكرية وعلمية كان يعرضها على سوق العلم والمعرفة، وعليه حدث تعطُّش علمي غريب كان على الإمام أن يجيب عليه ويستجيب له.

لقد ساهم الإمام الصادق عليه السلام مساهمة ايجابية وفعالة في التقدم التكنولوجي، والتطور العلمي في جميع أنحاء العالم، وذلك بما قدَّمته جامعته من نظريات خلاّقة، وأسس رائعة لعلم الفيزياء والكيمياء والطب وغيرها من العلوم التي يحتاج إليها الناس في أمور حياتهم [٢].

ويمكن حصر الأسباب التي أوجبت حدوث هذه الحركة العلمية في الأمور التالية:

السبب الأول: إنّ العالم الاسلامي في عهد الإمام الصادق عليه السلام كان يرزح بالفتن والاضطرابات، التي أدت إلى تفكك المجتمع وتفلُّل وحدته، وقد اشتعلت في جميع حواضره وأقاليمه نار الحرب، الأمر الذي أدى الى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، وقد انتهز الإمام الصادق عليه السلام هذه الفرصة، فانبرى يعمل مجدّاً في نشر الثقافة الاسلامية، وإبراز قيم أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد أُتيحت لشباب المسلمين الفرصة للتعرف على واقع الدين الاسلامي الذي جعل طلب العلم فريضة على عموم المسلمين، فهبّوا

لطلبه، وقد وجدوا في حفيد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بغيتهم، فهو القائد الموجّه لبناء كيانهم الحضاري والعلمي.

السبب الثاني: إنّ الإمام الصادق عليه السلام كان بمعزل عن التدخل في أي شأن من شؤون الدولة الأموية والعباسية لعلمه بفشل المعارضة – كما سيتضح ذلك في المبحث الثاني– ولذا لم يباشر أي عمل إيجابي يصطدم بأهداف إحدى الدولتين، أو يمس الوتر الحساس من أغراضهم وأهدافهم السياسية، فقد كان بمعزل عن الجميع، وقد أحبّوه وطلبوا رضاءه، وقد وجد المجال إمامه فسيحاً لفتح أبواب جامعته وتغذية عقول الناشئة العلمية بسائر ألوان العلوم والمعارف [٣]، وحيث لم تفرض السلطة الرقابة عليه، فقد سارع كبار العلماء والمحدثين والرواة إلى الالتحاق بجامعته، والانتهال من نمير علومه، وقد وجد الإمام عليه السلام بهم خير عون لنشر رسالته الاصلاحية التي بلورت عقلية المجتمع الاسلامي وأنقذته من رواسب الجهل والجمود.

السبب الثالث: كان للقوميات والأمم التي دخلت الاسلام خلفية فكرية وعلمية، وكان لبعضها مثل العنصر الفارسي – الذي كان له خلفية حضارية أكثر ازدهاراً – والمصري والسوري حضارات عريقة في تلك الفترة ، فراحت هذه الأمم وبدافع فهم تعاليم الاسلام بشكل معمق تبحث وتتفحص وتتبادل الآراء فيما بينها[٤].

السبب الرابع: التساهل الديني أو التعايش السلمي مع غير المسلمين، خاصة التعايش مع أهل الكتاب، انطلاقاً من مبدأ إسلامي وهو (التعارف) [٥]. فقد تحمّل وقبل المسلمون أهلَ الكتاب، ولم يروا في ذلك مخالفة لعقيدتهم الدينية، وكان لأهل الكتاب في تلك الفترة علماء وخبراء وكان المسلمون يواجهونهم مواجهة علمية، وكان هذا بدوره يؤدي إلى الجدل والبحث والمناظرة.

السبب الخامس: ومن عوامل النمو لهذه الجامعة الكبرى واتساعها بهذا الشكل الذي لم يعهد له نظير، أن الإمام الصادق عليه السلام هو العميد لهذه المؤسسة، وقد أجمع المسلمون على اختلاف طوائفهم ونزعاتهم أنه من ألمع أئمة المسلمين في علمه وفقهه ومواهبه وتقواه وورعه وتحرّجه في الدين، ومن الطبيعي أن لشخصية العميد الأثر التام في نجاح الجامعة وازدهارها، وبذلك فقد توفرت جميع العوامل الحساسة لنجاح جامعة الإمام عليه السلام ونموها.

انطلق الإمام الصادق عليه السلام من خلال تطويره لمدرسة آبائه عليهم السلام بهدف أن تكون أداة ونافذة لوعي الأمة وإصلاحها، وبالتالي لتمتد إلى الأمة فتكون تياراً واسعاً وعنصراً مؤثراً في حياتها سلوكاً واختلافاً وعلماً وجهاداً، وهذا يتطلب أن تكون النواة التأسيسية بمستوى المرحلة، ولها القدرة في العطاء والتحريك ومنسجمة مع متطلبات الأمة، ولهذا فقد امتازت جامعة الإمام عليه السلام بعدد من المميزات تبعاً لضخامة أهدافها التي أراد مؤسسها إنجازها في هذه المرحلة، لتعطي ثمارها في المستقبل البعيد، فضلاً عن إصلاحها لحاضر الأمة:

١- مما يميّز هذه الجامعة عن باقي الجامعات، أنها لم تنغلق في المعرفة على خصوص العناصر الموالية فحسب، وإنما انفتحت لتضمّ طلاب العلم من مختلف الاتجاهات، فهذا أبو حنيفة النعمان الذي كان يخالف الإمام عليه السلام في منهجه- باعتباره قد سلك في القياس مسلكاً استوجب شدة الإنكار عليه وعلى أصحابه، وهو الذي أطلق على مؤمن الطاق (أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ومعتمديه) اسم شيطان الطاق- كان ممن يختلف الى الإمام عليه السلام ، ويسأله عن كثير من المسائل، وقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام وحدَّث عنه واتصل به في المدينة المنورة مدة من الزمن، كما أنه كان قد ناصر زيد بن علي عليه السلام ، وساهم في الدعوة إلى الثورة والخروج معه، وكان يقول: ((ضاهى خروج زيد خروج رسول الله يوم بدر))[٦].

٢- لم يقتصر علم الإمام عليه السلام على حقل واحد - كالفقه أو الكلام مثلاً ، ليكون سبباً لمخاطبة وجذب فئة محدودة من الناس- وإنما تناولت جامعته العلمية مجموعة العلوم الدينية وغير الدينية، وتربى فيها كبار العلماء في مختلف فروع المعرفة الإسلامية والبشرية، بحيث نجد الحضارة الانسانية أصبحت مدينة إلى علوم الإمام عليه السلام ومعارفه ومنهجه التعليمي والمعرفي. لقد اعتبر علماء الغرب الإمام الصادق عليه السلام العقل المفكر والمبدع في الانسانية، ومن الطريف جداً أن بعض المستشرقين زعم أن الإمام الصادق عليه السلام من الغرب ونزح إلى الشرق؛ لأن الشرقيين لا يملكون مثل ما يملكه الإمام من الطاقات العلمية الهائلة، وقد خفي عليه أنه من الأسرة النبوية التي فجرت النور والوعي في الأرض [٧] .

٣- لم تتلوث جامعة الإمام عليه السلام بسياسة الحكومات الجائرة، فلم تكن موضع شبهة وكراهية من الناس؛ ليتصور أن المدرسة ما هي إلا أداة لخدمة الحكام كما يلاحظ

في بعض المدارس المعاصرة لها، بل قد رأت الأمة أنَّ هذه المدرسة على رأسها وريث النبوة وعملاق الفكر المحمدي الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام ، المعروف بمواقفه الرسالية واستقامته على خط الشريعة الربانية المحمدية ، وقد لُقّب بالصادق لصدقه، وعدم مساومته وعدم خضوعه لسياسة الحكام المنحرفين، من هنا كانت جامعة الإمام عليه السلام تعتبر حصناً سياسياً وفكرياً يلوذ به طلاب الحقيقة.

٤- كما تميزت جامعته عليه السلام . بمنهجها العلمي السليم، وعمقها الفكري واتجاهها العقائدي التربوي والاصلاحي. ولم تكف أطروحتها في الإعداد العلمي، الاعتماد على حشو الذهن بالمعلومات فقط، وإنما خرّجت هذه الجامعة شخصيات كبرى ونماذج مثلى عرفت بالعطاء السخي للامة.... بحيث أصبح الانتماء إلى مدرسة الإمام وجامعته يعدّ من المفاخر، فقد وصل عدد طلابها إلى أربعة آلاف طالب علم[٨]، واتسعت فيما بعد؛ لتشكل عدة فروع لها في الكوفة والبصرة وقم ومصر.

٥- والجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام لم يجعل من الجامعة والجهد المبذول فيها نشاطاً منفصلاً عن حركته وأنشطته الأخرى، بل كانت جزء لا ينفصل عن برنامجه التغييري؛ لأنها بالتأكيد كانت تساهم في خلق مناخ يمهّد بدوره لبناء الفرد الصالح، ومن ثم المجتمع الصالح؛ لأن هذه الجامعة تشكّل امتداداً واعياً للخط الرسالي في وسط الأمة، ونشاط الإمام عليه السلام وإنْ تعدّد لكنه نشاط مترابط ومتداخل؛ حيث نجد الكادر العلمي الحاضر في مدرسة الإمام عليه السلام هو الذي يحضر في نشاطات الإمام الخاصة وبعض نشاطاته العامة.

٦- لقد حرص الإمام الصادق عليه السلام في هذه الفترة أن يحقق من خلال مدرسته إنجازاً في خصوص تدوين الحديث والحفاظ على مضمونه، بعد أن كان قد تعرّض في وقت سابق للضياع والتحريف والتوظيف السياسي، بعد المنع من تدوينه، والأئمة المعصومون عليهم السلام لم يستجيبوا لقرار المنع، بمعنى ضياع الحديث ونسيانه. يقول الإمام الصادق عليه السلام : ((إنّ عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس وأن الناس ليحتاجون إلينا، وأن عندنا كتاباً بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخط علي عليه السلام وصحيفة فيها كل حلال وحرام...))[٩]. وجاء عنه عليه السلام أنه قال: ((علمُنا غابر ومزبور، ونكتٌ في القلوب ونقرٌ في الأسماع، وأنّ عندنا الجفر الأحمر، والجفر الأبيض، ومصحف فاطمة، وأنّ عندنا (الجامعة)، فيها جميع ما يحتاج الناس إليه))[١٠] والجفر كانوا يكتمونه عن غيرهم.

٧- وكان الإمام الصادق عليه السلام يأمر طلابه ويؤكد لهم ضرورة التدوين والكتابة، كما نجد ذلك في قوله عليه السلام : ((احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها . وكان يشير إلى نشاط زرارة في مجال الحديث ويقول: ((رحم الله زرارة بن أعين، لولا زرارة لاندرست أحاديث أبي))[١١] .

وقال عن زرارة وجماعة من أصحابه : ((لولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا الفقه، هؤلاء حفّاظ الدين وأمناء أبي عليه السلام على حلاله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والآخرة))[١٢].

وكان يأمر طلابه بالتدارس والمباحثة، حيث يقول للمفضل بن عمرو: ((اكتب وبثّ علمك في إخوانك، فإنْ مت فأورث كتبك بنيك، فإنه يأتي على الناس زمان حرج لا يأنسون فيه إلا بكتبهم))[١٣] .

وعلى هذا الاساس اهتم أصحابه بكتابة الأحاديث وتدوينها، حتى تألقت واجتمعت الأصول الأربعمائة المعروفة [١٤]، والتي شكلت المجاميع الحديثية الأولى عند الشيعة الإمامية.

٨- اعتنى الإمام عليه السلام بالتخصص العلمي في تلك المرحلة؛ لأن للاختصاص دوراً كبيراً في إنماء الفكر الاسلامي وتطويره، بحيث يكون قادراً على استيعاب الطاقات الكثيرة الوافدة على مدرسة الإمام عليه السلام من سائر أنحاء العالم الاسلامي، وبالتخصص تتنوع العطاءات، ويكون الإبداع وعمق الانتاج، لذا وجّه الإمام التخصص العلمي، وتصدى للإشراف على كل تلك التخصصات.

ففي الفلسفة وعلم الكلام ومباحث الإمامة، تخصّص كل من هشام بن الحكم، وهاشم بن سالم، ومؤمن الطاق، ومحمد بن عبد الله الطيار، وقيس الماهر وغيرهم.

وفي الفقه وأصوله وتفسير القرآن الكريم، تخصّص كل من : زرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، وجميل بن درّاج، وبريد بن معاوية، واسحاق بن عمار، وعبد الله الحلبي، وأبو بصير، وأبان بن تغلب، والفضيل بن يسار، وأبو حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، ومحمد بن الحسن الشيباني، وسفيان بن عيينة، ويحيى ابن سعيد، وسفيان الثوري.

وتخصّص في الكيمياء جابر بن حيان الكوفي، وتخصّص في حكمة الوجود ((المفضل بن عمر)) الذي أملى عليه الإمام الصادق عليه السلام كتابه المعروف بـ ((توحيد المفضل)).

٩- ونشط طلاب الإمام عليه السلام في نتاجاتهم، كلٌ حسب اختصاصه في التأليف والمناظرة، فقد جمع السيد حسن الصدر أسماء مؤلفات الشيعة في هذه الفترة، وذكر أنها وصلت إلى ستة آلاف وستمائة كتاب(١٥).

كما برز في المناظرة هشام بن الحكم، وكان الإمام الصادق عليه السلام مسروراً بمناظرات هشام، ويحب أن يسمع مناظراته مع زعيم المعتزلة عمرو بن عبيد الذي تغلّب عليه، وبعد أن قصّها هشام للإمام عليه السلام قال له الإمام عليه السلام : يا هشام مَنْ علَّمك هذا؟ قال: يابن رسول الله جرى على لساني... قال الإمام عليه السلام : هذا والله مكتوب في صحف ابراهيم وموسى))(١٦).

١٠- ومن الاهداف التي خطط لها الإمام عليه السلام في مدرسته هو إنشاء وتنشيط حركة الاجتهاد، وتخريج الفقهاء والمجتهدين في علوم الشريعة الاسلامية. والاجتهاد ضرورة قرآنية التزم بها أهل البيت عليهم السلام ، وعملوا على تحقيقه لأتباعهم لئلا يكونوا أتباعاً لغيرهم وليكونوا القدوة المثلى في كل عصر.

والاجتهاد المشروع هو طريق الاستنباط الصحيح للحكم الواقعي أو الظاهري كما رسمه أهل البيت عليهم السلام ، وقد تميزت روايات أهل البيت عن روايات غيرهم كما أفصح عن هذه الحقيقة الإمام الصادق عليه السلام في قوله: ((حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين ، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحديث رسول الله قول الله عز وجل))(١٧) .

وقال عليه السلام : ((إنا لو كنا نفتي الناس برأينا وهوانا؛ لكنا من الهالكين ولكنها آثار من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أصل علم نتوارثها كابر عن كابر، نكتنزها كما يكتنز الناس ذهبهم وفضتهم))(١٨) .

وعليه فالاجتهاد في مذهب أهل البيت عليهم السلام هو اجتهاد في دائرة النص الشرعي الواصل إلينا عن طريق أهل البيت عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أو النص القرآني الذي لوحظت كل ملابساته، ومن هنا رسم الإمام عليه السلام منهج الاجتهاد في فهم النص, وحارب اجتهاد الرأي المتمثل في القياس والاستحسان، كما حاربه القرآن وسائر أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وحاولوا إبعاده عن الشريعة وإبعاد أتباعهم عنه، ومن هنا رسموا لنا معالم هذا الاجتهاد وخطوطه العريضة، وبيّنوا أسسه وأساليبه، ووفّروا وسائله وأدواته، وطبّقوا منهجه،

ودعوا أصحابهم اليهم، وقدّموا نماذج حية للمجتمع الإسلامي في هذا الصدد. وهكذا انبثقت مدرسة الفقهاء الرواة التي اعتمدت منهج أهل البيت الفقهي والتشريعي، وتميزت بذلك عن سائر المدارس الفقهية المتحررة من هذا المنهج أو الجامدة على ظواهر النصوص.

هذا عرض مختصر لبعض أنشطة الإمام عليه السلام في جامعته العلمية وأطروحته التغييرية؛ التي استطاع بواسطتها أن يحيي معالم الشريعة ويعيد للأمة علاقتها وثقتها بالإسلام بعد موجة خطيرة كادت أن تؤدي إلى موت الأمة المحتوم.

المبحث الثاني

دوره عليه السلام في ارساء معالم الفكر الاسلامي السياسي

إنَّ من أبرز معالم الفكر السياسي التي تتبناه الدولة الاسلامية، استئصالها لكل علاقات الاستغلال التي تسود مجتمعات الجاهلية وتحرير الانسان من استغلال أخيه الانسان في كل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية.

هذا الأساس الذي تبناه الإمام الصادق عليه السلام – ونعني به– استئصال المشاعر التي خلقتها ظروف الاستغلال واعتماد مشاعر أخرى أساساً للثورة على الواقع الفاسد، وبكلمة أخرى تطوير تلك المشاعر على نحو تمثّل الإحساس بالقيم الموضوعية للعدل والحق والقسط والايمان بعبودية الانسان لله، والتي تحرره من كل عبودية وبالكرامة الانسانية، وهذه المشاعر تخلق القاعدة التي تتبنى تصفية الاستغلال والتناقضات، لا لأنه يمس مصالحها الشخصية فحسب بل لأنه أيضاً يمس المصالح الحقيقية للظالمين والمظلومين على السواء، وتنتزع وسائل السيطرة من المستغلين لا طمعاً فيها وحرصاً على احتكارها بل إيماناً بأنها من حق الجماعة كلها، وتلغي العلاقات الاجتماعية التي نشأت على أساس الاستغلال لا لتنشئ علاقات مماثلة لفئة أخرى من المجتمع، بل لتعيد إلى الجماعة البشرية الشروط الضرورية لممارسة الخلافة العامة على الأرض وتحقيق أهدافها الرشيدة[١٩].

ولهذا أوضح الإمام الصادق عليه السلام سياسته في هذه المرحلة أمام حشد من معارضي الأمويين ، وأشار بشكل غير مباشر إلى الخلل العقائدي والفكري، والأهداف التي كان يسعى لها بعض عناصر المعارضة. نلاحظ ذلك فيما روي أنَّ عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وغيرهم من كبار المعتزلة التقوا بالإمام الصادق عليه السلام وطرحوا عليه فكرة القيام بالثورة والاستيلاء على الحكم، وطلبوا منه التأييد لهم والانضمام معهم.

هنا لم يستجب الإمام على نفس السؤال ولم يلبِّ طلبهم، وإنما عالج مسألة أخرى هي أهم من الاستجابة لطلبهم مستخدماً نفس الطريقة السابقة، فإن العمل المسلح لا ينفع إذا كانت نوازع ومشاعر الثائرين لا تختلف عن مباني ونوازع الأمويين في الحكم، ولهذا شخّص الإمام عليه السلام لهؤلاء الداء الذي سبَّب تلك العواقب المظلمة والانحرافات التي ألمَّت بالمجتمع الاسلامي (٢٠).

ومن المعالم الأخرى في فكر الإمام الصادق عليه السلام السياسي، هو تحذيره لأتباعه من الانجرار للمواقف الانفعالية.

ولإيضاح هذا المعلم، نطالع بعض النماذج التالية:

النموذج الأول: ويتضمن تأكيد الإمام عليه السلام على التثبت والتحقيق وعدم التسرُّع في الاستجابة لكل من يرفع شعار الثورة حتى ولو كان هذا الشعار هو شعار أهل البيت عليهم السلام؛ لأن الانسان إنْ لم يتثبت لكان هو الخاسر ولكانت الخسارة عظيمة جداً؛ لأنه سوف يخسر الحياة التي سيحاسب على صغيرها وكبيرها وسوف لا ينفعه الندم والتوبة إنْ قُتل لا على بينة أو دليل قوي.

وفي هذا خير تحذير من الاختراقات السياسية التي كانت تحاول توظيف الوجود الشيعي لصالحها وتدّعي بأنّ لها صلة بالإمام لكنها في الحقيقة كانت تريد الاستغفال.

لنقرأ ما جاء عن عيص بن القاسم حين قال: سمعتُ أبا عبد الله الصادق عليه السلام : عليكم بتقوى الله وحده لا شريك له، أنظروا لأنفسكم فوالله إن الرجل ليكون له الغنم فيها الراعي، فإذا وجد رجلاً هو أعلم بغنمه من الذي كان فيها، والله لو كانت لأحدكم نفسان يقاتل بواحدة يجرّب بها، ثم كانت الأخرى باقية فعمل على ما قد استبان لها. ولكن له نفس واحدة إذا ذهبت ، فقد والله ذهبت التوبة، فأنتم أحق أن تختاروا لأنفسكم . إنْ أتاكم آتٍ منا فانظروا على أي شيء تخرجون(٢١).

النموذج الثاني: وفيه يشير الإمام عليه السلام إلى أن المرحلة أحوج ما تكون إلى النماذج الصالحة والقدوة الحسنة لترفد المجتمع بسلوكها الصالح وفكرها الصائب.

فعن عمر بن أبان قال: سمعتُ أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: ((يا معشر الشيعة إنكم نسبتم إلينا ، كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً، ما يمنعكم أن تكونوا مثل أصحاب علي عليه السلام في الناس؟ إن كان الرجل منهم ليكون في القبيلة، فيكون إمامهم ومؤذنهم وصاحب أماناتهم وودائعهم. عودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، وصلّوا في مساجدهم، ولا يسبقوكم إلى خير، فانتم- والله- أحق منهم به))(٢٢) .

ينطلق الإمام عليه السلام من مفهوم قرآني حيث يقول سبحانه ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٢٣) ، ويعني بأن الحب الحقيقي هو تجسيد صفات المحبوب في ذات المحب، فبدون هذا التجسيد، يبقى الحب شكلياً لا يمكن الاعتماد عليه وخصوصاً في المواقف الحرجة التي تتطلب موقفاً مبدئياً. فالإمام لا يتفاعل مع الوفود التي لا تملك حباً حقيقياً للقيادة الشرعية.

فمناهج الأئمة عليهم السلام في ممارسة التغيير لم تكن في أي وقت مناهج مغامرات تتخذ العفوية والارتجال أساساً في تقرير العمل التغييري الشامل بل كانت خططهم كلها ومناهج التغيير عندهم قائمة على أسس علمية وموضوعية واضحة.

وقد كتب أبو مسلم الخراساني- وهو عباسي الهوى- كتاباً للإمام الصادق عليه السلام جاء فيه: ((إني أظهرتُ الكلمة ودعوتُ الناس عن موالاة بني أمية إلى موالاة أهل البيت، فإنْ رغبتَ فلا مزيد عليك))(٢٤).

فانظر ماذا أجابه الإمام عليه السلام عندما كتب إليه رداً على كتابه هذا مخاطباً الخراساني العباسي: ((ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني))(٢٥).

وبهذا الردّ يكشف لنا الإمام عليه السلام أن الدافع في رفض هذا العرض كان علمه بعدم واقعيته وصدقه من جهة ((ما أنت من رجالي))، ومعرفته الكاملة بعدم وجود القوة الكافية التي تسنده في طلب الحكم ((ولا الزمان زماني)).

ومن هنا نعرف خطأ مَنْ يزعم بأن رفض الإمام للحكم مع مواتاة الظروف له، يعني تخلّيه عن الجانب السياسي من قيادته، بل إن كل ما في الأمر أن موقفه الرافض جاء تعبيراً عن صيغة من صيغ العمل السياسي التي حددتها له الظروف الموضوعية.

ولذلك رأى الإمام عليه السلام أن يظهر الانصراف شخصياً بصورة كاملة عن مسألة الحكم ليمارس العمل داخل الأمة، ويعدّها على المدى لإنشاء هذا الحكم، بعد أن تؤدي دورها التغييري في الأمة والتأثير على مجرى أفكارها والأحداث المهمة فيها، وتصحيح الانحرافات المختلفة التي أفرزها الواقع السياسي والاجتماعي.

وخير دليل على صحة هذا الرأي ، هذا الحوار الذي جرى بين سدير الصيرفي والإمام الصادق عليه السلام :

قال سدير الصيرفي: دخلتُ على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: والله ما يسعك القعود. فقال عليه السلام : ولمَ يا سدير؟ قلت: لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك، والله لو كان لأمير المؤمنين عليه السلام ما لك من الشيعة والأنصار والموالي ما طمع فيه تيم وعديّ.

فقال عليه السلام يا سدير ! وكم عسى أن يكونوا؟ قلت: مائة ألف. قال: مائة ألف، قلت : نعم، ومائتي ألف؟ فقال: ومائتي ألف؟ قلت: نعم، ونصف الدنيا. قال: فسكت عني ثم قال: يخفّ عليك أن تبلغ معنا إلى ينبع [٢٦] ؟ قلت: نعم. فأمر بحمار وبغل أن يُسرجا ، فبادرتُ فركبتُ الحمار فقال: يا سدير : أترى ، إنزل بنا نصلّي ثم قال: هذه أرض سبخة لا تجوز الصلاة فيها، فسرنا حتى صرنا إلى أرض حمراء، ونظر إلى غلام يرعى جداء [٢٧].

فقال: والله يا سدير! لو كان لي شيعة بعدد هذه الجداء ما وسعني القعود. ونزلنا وصلّينا فلما فرغنا من الصلاة عطفتُ على الجداء، فعددتها فإذا هي سبعة عشر [٢٨].

فالإمام عليه السلام إزاء هذا الواقع السياسي المملوء بالفساد والضياع قد وجد أنّ الأمر أحوج ما يكون إلى ايجاد تيار إسلامي أصيل يحمل قيم الرسالة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولابد أيضاً أن يتم عزل الأمة عن الحكومات الظالمة لئلا تكون مرتعاً لمظالمها، فعن طريق غرس القيم الاسلامية وايجاد تيار فاعل يساهم في اجتثاث المظالم أو تقليلها، يمكن التحرك لاصلاح الواقع الفاسد، حيث إنه قد يرغم الولاة على العدل استجابة لارادة قطاع كبير من الأمة حينما يرفض هذا القطاع الكبير الاستبداد ويدعو إلى العدل بوعي إسلامي عميق.

وبهذا يؤكد الإمام عليه السلام حقه في الحكم، ويثبت وجهة نظره في الاوضاع السياسية، وينجح في صيانة أصحابه عن الاندماج في جسم الوضعية القائمة أو التأثر بها، لقد عبّأهم نفسياً – بهذه العملية – ضد الوضع الراهن في وقته، فكانت أسلوباً للبناء بالنسبة لهم، وأسلوباً للهدم بالنسبة للحكم القائم.

ومن المعالم الأخرى في فكر الإمام الصادق عليه السلام السياسي، تأييده للحركات الثورية المخلصة؛ لتحريك ضمير الأمة الاسلامية وإرادتها، والاحتفاظ للضمير الإسلامي والارادة الاسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين، وهذا العلم مارسه ثائرون علويون كانوا يحاولون بتضحياتهم اليائسة أن يحافظوا على الضمير الاسلامي والارادة الاسلامية، وكان الأئمة عليهم السلام يسندون المخلصين منهم.

وفي رواية أنه ذُكر بين يدي الإمام الصادق عليه السلام مَنْ خرج من آل محمد، فقال: لا أزال أنا وشيعتي بخير ما خرج من آل محمد ، ولوددتُ أنّ الخارجي من آل محمد خرج وعليَّ نفقة عياله [٢٩].

وقد كان الإمام الصادق عليه السلام يحضّ الناس ويدفعهم للوقوف مع زيد بن علي (عمّ الإمام الصادق) في ثورته ضد الدولة الأموية، وعندما بلغه مقتل زيد (بلغ ذلك منه كل مبلغ، وحزن له حزناً شديداً عظيماً حتى بان عليه، وفرق من ماله على عيال مَنْ أصيب مع زيد من أصحابه ألف دينار)[٣٠].

نعم، لقد تخلّى الإمام الصادق عليه السلام عن ممارسة العمل المسلح ضد الحكام المنحرفين بشكل مباشر، وكان موقفه هذا تعبيراً واقعياً عن اختلاف صيغ العمل السياسي التي تحددها الظروف الموضوعية، وإدراكاً عميقاً لطبيعة العمل التغييري.

فالإمام عليه السلام حاول أن ينشر قيمه ومفاهيمه ودعوته بعيداً عن التصريحات السياسية الثورية، واتجه نحو بناء تيار شعبي عام في الأمة، كما ركّز على بناء الجماعة الصالحة الممثِّلة لخط أهل البيت عليهم السلام ، والإشراف عليها وتنظيم أساليب عملها في مواجهة الانحراف المستشري بحيث يجعلها كتلة مترابطة في العمل والتغيير، وإعداد أرضية صالحة تؤدي إلى قلب الواقع الفاسد على المدى القريب أو البعيد.

المبحث الثالث

دوره عليه السلام في ارساء معالم الفكر الاجتماعي الاسلامي

إنَّ عملية صناعة مجتمع على أساس التوحيد والعدل الاجتماعي وتكريم الانسان وتحريره، وتحقيق المساواة الحقوقية والقانونية بين المجموعات والأفراد، ورفض الاستغلال والاستبداد والاحتكار، وافساح المجال للطاقات والكفاءات الانسانية، وتشجيع التعلّم والتعليم والفكر والتفكير، أي أنها عملية إقامة مجتمع تنمو فيه كل عوامل سمو الانسان في جميع الأبعاد السياسية، ويندفع الكائن البشري فيه باتجاه مسيرته التكاملية على ساحة التاريخ. أقول أنّ هذه العملية ليست سهلة يسيرة بل تحتاج إلى بذل جهود جبارة في سبيل تحقيق أهداف ذلك المجتمع، حيث تتطلب أولاً ايديولوجية موجهة وهادية ينبثق عنها ذلك النظام الاجتماعي وتصوغه بصياغتها، ثم تحتاج ثانياً إلى قوة تنفيذية تستطيع أن تشق الطريق وسط الصعاب والمشاكل والعقبات نحو تحقيق الهدف.

قام الإمام الصادق عليه السلام بدوره التاريخي على أحسن وجه، حيث رسم الخط العام للعلاقات الاجتماعية للجماعة الصالحة، وبيَّن نظامها ووضع الأسس والقواعد المبدئية لهذا النظام ورسّخها في نفوسهم ليتمكن الفرد الصالح من العيش في المجتمع وفي الظروف الصعبة، ويمتلك القدرة في مواجهة المخططات التي تسعى لتفتيت مثل البناء الذي يهدف له الإمام عليه السلام وهو النظام الاجتماعي الذي خطط له الإمام عليه السلام وأمدّه بعناصر البقاء والاستمرار ليمتد بجذوره في أوساط الامة.

ومن أبرز معالم هذا الخط العام للعلاقات الاجتماعية:

أولاً: الانفتاح على الأمة:

لقد أكد الإمام عليه السلام على محور مهم يمدّ الجماعة الصالحة بالقدرة والانتشار، وهو محور الانفتاح على الأمة وعدم الانغلاق على أنفسهم، وقد حثّ الإمام عليه السلام شيعته على توسيع علاقاتهم مع الناس وشجّعهم على الإكثار من الأصحاب والأصدقاء، فقد جاء عنه عليه السلام : ((أكثروا من الأصدقاء في الدنيا فإنّهم ينفعون في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فحوائج يقومون بها، وأما في الآخرة فإنّ أهل جهنم قالوا: مالنا من شافعين ولا صديق حميم))[٣١] . وجاء عنه عليه السلام أيضاً: ((استكثروا من الأخوان فإنّ لكل مؤمن شفاعة))[٣٢]. كما أكد الإمام عليه السلام على مواصلة هذا الانفتاح وشدّه بآداب وأخلاق تدعو للتلاحم والتعاطف بين المؤمنين فقال: ((التواصل بين الأخوان في الحضر التزاور، والتواصل في السفر المكاتبة))[٣٣].

ثانياً: تأكيد علاقة الأخوة:

كان الإمام عليه السلام يعمّق ويجذّر علاقة الأخوة في الله ويضع لها التوجيهات المناسبة التي تزيد في التلاحم والتفاهم بين أبناء المجتمع الاسلامي، فمنها ما قاله عليه السلام لخيثمة: ((أبلغ موالينا السلام وأوصهم بتقوى الله والعمل الصالح، وأن يعود صحيحهم مريضهم، وليعد غنيهم على فقيرهم، وأن يشهد جنازة ميّتهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم، وأن يتفاوضوا علم الدين فإن ذلك حياة لأمرنا، رحم الله عبداً أحيى أمرنا))[٣٤] .

من جهة أخرى ندّد الإمام عليه السلام بظاهرة المقاطعة بين الأخوة المؤمنين قائلاً: ((لا يفترق رجلان على الهجران إلا استوجب أحدهما البراءة واللعنة، وربما استحق ذلك كلاهما . فقال له معتّب: جعلني الله فداك ، هذا الظالم. فما بال المظلوم؟ قال: لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته ولا يتغامس (يتغافل) له عن كلامه، سمعت أبي يقول: إذا تنازع

اثنان، فعازّ أحدهما الآخر فليرجع المظلوم على صاحبه حتى يقول لصاحبه : أي أخي أنا الظالم، حتى يقطع الهجران فيما بينه وبين صاحبه، فإن الله تبارك وتعالى حكم عدل يأخذ للمظلوم من الظالم))[٣٥] .

ثالثاً: بناء الجماعة الصالحة:

كان تحرُّك الإمام عليه السلام نحو بناء الجماعة الصالحة يهدف إلى تغيير المجتمع الاسلامي وفق أطروحة أهل البيت عليهم السلام ؛ لأن وجود مثل هذا التيار المتماسك يوفّر جملة من المكاسب والمنافع والأهداف التي كان يسعى الإمام عليه السلام لتحقيقها في حركته الرسالية.

إنّ الجماعة الصالحة تحقق ديمومة خط أهل البيت عليهم السلام حيث يشكّل وجودها خطوة عملية باتجاه مشروعهم الكبير.

ونلخّص فيما يلي بعض النقاط التي يحققها وجود هذه الجماعة الصالحة:

١- المحافظة على المجتمع الاسلامي

إن وجود هذا الخط في وسط الأمة سوف يوسّع من دائرة الأفراد الصالحين والواعين، وكلما اتسعت هذه الدائرة كان الإمام عليه السلام أكثر اقتداراً على التغيير وادارة العمل السياسي الذي يخوضه مع الحكام.

ويمثّل هذا الخط القوة التي تقف بوجه التحدي الفكري والأخلاقي الذي واجهه العالم الاسلامي حينذاك، وقد كان من المشهود تأريخياً ما لهذه الجماعة الصالحة من دور فعال ومتميز في تزييف البنى الفكرية والسياسية التي تعتمدها الفرق الضالة من خلال مطارحاتهم ومناقشاتهم مع أقطاب تلك الفرق كالزنادقة والمجبّرة والمرجئة وغيرها.

وامتاز أصحاب الإمام الصادق عليه السلام عن غيرهم بالمواقف الشجاعة والتمسك بالمثل والقيم العليا وعدم المداهنة وعدم الركون لإغراءات السلاطين، وتحمّلوا جرّاء التزامهم بالقيم المثلى شتى ألوان القمع والاضطهاد، وكان لمواقفهم الشجاعة الأثر الكبير في ثبات ومقاومة المجتمع الاسلامي إمام موجات الانحراف.

لقد كان الإمام الصادق عليه السلام يطلب من شيعته أن يكون كلٌّ منهم القدوة والمثل الأعلى في الوسط الذي يعيش فيه، فقد روي عن زيد الشحّام أنه قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام : ((إقرأ على مَنْ ترى أنّه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله عز وجل والورع في دينكم، والاجتهاد لله وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأدّوا الأمانة من ائتمنكم عليها برّاً أو فاجراً،

فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يأمر بأداء الخيط والمخيط، صلوا عشائركم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم وأدّوا حقوقهم فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الامانة وحسُن خُلقه مع الناس، قيل: هذا جعفري))[٣٦] .

وكان الإمام عليه السلام يأمر شيعته بالاهتمام بوحدة الصف الإسلامي، والانفتاح على المذاهب الأخرى وترسيخ روح التعايش والمحبة وتأكيد التماسك بين الجماعات الاسلامية، فنجده يحرّضهم على التضامن والتكافل والوفاء بالعهود مع باقي المسلمين، قال عليه السلام : ((عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة وحضور الجنائز، إنّه لابدّ لكم من الناس، إنّ أحداً لا يستغني عن الناس في حياته ، والناس لابد لبعضهم من بعض))[٣٧] .

وكان عليه السلام يطرح للشيعة الأفق الاسلامي الرحيب في السلوك ليتحركوا باتجاهه، وأن لا يكتفوا بالمستويات الدانية مخافة أن تهزّهم ريح التحدي والإغراء فيصف الشيعة لهم قائلاً: ((فإن أبي حدثني أنّ شيعتنا أهل البيت كانوا خيار من كانوا منهم: إنْ كان فقيه كان منهم، وإنْ كان مؤذن كان منهم، وإنْ كان إمام كان منهم، وإنْ كان كافل يتيم كان منهم، وإنْ كان صاحب أمانة كان منهم، وإنْ كان صاحب وديعة كان منهم، وكذلك كونوا، حبّبونا إلى الناس ولا تبغّضونا إليهم))[٣٨].

٢- الحفاظ على الشريعة الإسلامية

وقف الإمام الصادق عليه السلام ضد حملات التشويه التي أرادت أن تعصف بالشريعة الاسلامية وتعرّضها للانحراف الذي أصاب الشرائع الأخرى من خلال دخول أفكار غريبة عن الشريعة بين أتباعها واستخدام أدوات جديدة لفهم الشريعة كالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة.

ونتيجة للمستوى العلمي الرفيع الذي كان يتمتع به أصحاب الإمام الصادق عليه السلام وشيعته لم تصبح مسألة الإفتاء والاستنباط خاضعة لمصلحة السلاطين وأهوائهم أو منسجمة مع متبنياتهم الفكرية، بل بقي الفهم الصحيح للكتاب والسنّة مستقلاً عن تلك المؤثرات وبعيداً عن استخدام تلك الأدوات الاجتهادية أدّت هذه الجرأة إلى آثار سلبية مما اضطرها إلى أن تلجأ إلى غلق باب الاجتهاد، وكان هذا القرار قد ترك هو الآخر آثاراً سلبية في المجتمع الاسلامي لعدم قدرتها على معالجة التطورات الجديدة التي كانت تواجهها البلاد الاسلامية فيما بعد.

لقد أكّد الإمام الصادق عليه السلام قضية مهمة واعتبرها رصيداً مهماً لفهم النصوص وتبيينها والاستنباط منها، وتلك هي ملكة التقوى والعدالة التي لابد للفقيه أن يتمتع بها ليكون حارساً أميناً للشريعة والأمة التي تريد تطبيقها في الحياة.

والعدالة عند الإمام عليه السلام شرط في كثير من الممارسات الحياتية، فهي شرط في إمام الجماعة وفي شهود الطلاق وفي القاضي والحاكم والوالي.

وهذه المزية لها دور كبير في حفظ الشريعة وحفظ النصوص الاسلامية بحيث تميّز هذه المدرسة عن غيرها، كما أن أصحاب الإمام عليه السلام لم يتعاملوا مع النصوص الواردة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام كما تعاملوا مع النص القرآني القطعي الصدور، بل تناولوها بالدراسة والنقد والتحليل؛ لأن الراوي قد لا يكون معصوماً عندهم بالرغم من إيمانهم بعصمة الإمام المروي عنه.

٣- المطالبة بالحكم الاسلامي

إن القيادة السياسية حق مشروع للأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام وفق النصوص الاسلامية الثابتة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والتي تواترت عند مدرسة أهل البيت عليهم السلام .

ومن هنا كانت القيادة السياسية التي تولّت الحكم بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة لم تستوعب الرسالة الإسلامية لقصورهم، بالرغم من نزول المسلمين عند إرادتها وعدم مواجهتها، فضلاً عن الحكام الأمويين والعباسيين الذين عاصرهم الإمام الصادق عليه السلام حيث مارسوا شتى الطرق لإبعاد الإمام عليه السلام وآبائه الكرام عن هذا الموقع الريادي.

والإمام عليه السلام كان يرى ضرورة العمل من أجل ايجاد الكيان الاسلامي الصحيح والمطلوب ، وذلك من خلال وجود المجتمع الاسلامي الصالح الذي يؤمن بالقيادة الشرعية الحقيقية المتمثلة في الأئمة من أهل البيت عليهم السلام .

وهكذا كان الإمام عليه السلام يلفت النظر إلى ضرورة وجود هذه القاعدة الصالحة، حين كان يجيب على التساؤلات التي كانت تدور في نفوس أصحابه كجوابه لسدير الصيرفي حيث جاء فيه بأن المطالبة بالحكم وإعلان الثورة المسلحة يعتمد الجماعة الصالحة التي تطيع وتضحي وتتحمل مسؤولية التغيير وتكون لها القدرة على التصدي لكل عوامل الإنحراف.

وهكذا تبدو أهمية السعي لتكوين وترشيد حركة الجماعة الصالحة في هذه المرحلة من حياة الإمام عليه السلام وتوسيع رقعتها في أرجاء العالم الاسلامي.

الخاتمة

أما النتائج التي يمكن أن نستخلصها من هذا البحث فهي:

١- استوعب الإمام الصادق عليه السلام واقع أمته الفكري والعملي والظروف السياسية المحيطة به، مقارناً ذلك بواقع ما يملك هو من قوى وامكانات المواجهة والتحدي السياسي، حيث رأى عليه السلام أن التفكير بذهنية المواجهة السياسية للحكم – في مثل ظروفه وواقعه – من الأمور التي لا تقع في حدود ما يملك من استعدادات وقدرات، فالإمام لم يكن يرى أن الظهور بالسيف والانتصار المسلح الآني، يكفي لإقامة حكم الاسلام فإنَّ إقامة الحكم وترسيخه، لا يتوقف في نظره على مجرد تهيئة حملة عسكرية، بل يتوقف قبل ذلك على إعداد جيش عقائدي يؤمن بالإمام وعصمته إيماناً مطلقاً ويعي أهدافه الكبيرة ويدعم تخطيطه في مجال الحكم ويحرس ما يحققه للأمة من مكاسب.

٢- قام الإمام عليه السلام من خلال مدرسته بجهود علمية وفكرية دائبة، في مجالات نشر الفكر الاسلامي وتعميق مبادئه وأحكامه، حيث فرض من خلال حركته العلمية مرجعيته القيادية من الناحية العلمية والفقهية، بحيث لا يملك كبار العلماء من المذاهب الاسلامية الأخرى إلا أن يعترفوا بذلك كقول الإمام أبي حنيفة: ((ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد))[٣٩] .

٣- استطاع الإمام الصادق عليه السلام أن يؤدي رسالته بحكمة وحنكة وقوة عزم، ويفجّر ينابيع العلم والمعرفة، ويبني الأمة الاسلامية من داخلها، ويربّي العلماء والفقهاء الأمناء على حلاله وحرامه، ويشيد الجماعة الصالحة التي عليها تتكئ دعائم الخط النبوي لتحقيق مهامه الرسالية بعد أن عصفت الرياح الجاهلية بالرسالة الخاتمة وتصدّى لقيادة الامة رجال غير مؤهلين لها.

٤- لم يغفل الإمام الصادق عليه السلام عن تقوية الخط الثوري والجهادي في أوساط الأمة، من خلال تأييده لمثل ثورة عمه زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام ، ومن تلاه من ثوار البيت العلوي الكرام.

الهوامش :

(١) مناقب آل أبي طالب، الحافظ ابن شهر آشوب: ١١٢٥.

(٢) موسوعة سيرة أهل البيت، باقر شريف القرشي: ٢١/ ٩.

(٣) المصدر نفسه : ٢١/ ١١.

(٤) الإسلام وإيران، مرتضى المطهري: ٣١٧.

(٥) ينطلق هذا المبدأ الاسلامي ليستوعب كل البشرية من الآية الكريمة: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)).

(٦) المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة : ٧٣.

(٧) موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام ، باقر شريف القرشي: ١٩/ ١٠.

(٨) الإرشاد ، الشيخ المفيد: ١٧٩/٢.

(٩) الفصول المهمة في أصول الأئمة، الحر العاملي، ح٦٨٦: ٢٢/٢.

(١٠) المناقب، ابن شهر آشوب: ٣٩٦، بحار الانوار للمجلسي : ٤٧/ ٢٦؛ الارشاد للمفيد: ٣٠٧.

(١١) وسائل الشيعة ، الحر العاملي: ٥٧/٨-٥٩.

(١٢) المصدر نفسه .

(١٣) اصول الكافي للكليني: ١/ ٥٢.

(١٤) وسائل الشيعة: ١٨/ ٥٧- ٥٩.

(١٥) تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام، حسن الصدر: ٢٨٨.

(١٦) الاحتجاج لشرف الدين العاملي: ٢/ ١٢٥- ١٢٨.

(١٧) أصول الكافي، الكليني: ٥٣/١.

(١٨) بحار الأنوار، المجلسي: ٣٤/٨.

(١٩) الاسلام يقود الحياة، محمد باقر الصدر: ١٦٧.

(٢٠) الأئمة الاثنا عشر، دراسة تحليلية ، عادل الأديب: ١٧٥.

(٢١) بحار الأنوار، المجلسي: ٦٠٢/٥٢.

(٢٢) أصول الكافي: ٢/ ٢٩٣؛ مشكاة الأنوار: ٦٧؛ وسائل الشيعة : ١/ ٥٢.

(٢٣) آل عمران : ٣١.

(٢٤) الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ٢٤١.

(٢٥) المصدر نفسه .

(٢٦) ينبع: حصن له عيون ونخيل وزروع بطريق حاج مصر.

[٢٧] الجدي: من أولاد المعز.

[٢٨] الكافي للكليني: ٢/ ٢٤٢؛ بحار الانوار للمجلسي: ٤٧/ ٣٧٢.

[٢٩] أعيان الشيعة: ٣٣/ ١١٣، نقلا عن الارشاد للمفيد.

[٣٠] المصدر نفسه .

[٣١] وسائل الشيعة، الحر العاملي: ٧/ ٤٠٧.

[٣٢] المصدر نفسه : ٨/ ٤٠٨.

[٣٣] تحف العقول: ٣٥٨؛ بحار الأنوار: ٧٨/ ٢٤٠.

[٣٤] وسائل الشيعة: ٨/٤٠٠.

[٣٥] المصدر نفسه : ٨/ ٤٠٦، باب كراهة الانقباض من الناس.

[٣٦] وسائل الشيعة: ١٢/ ٥، ح٢ عن أصول الكافي : ٢/ ٤٦٤، ح٥.

[٣٧] وسائل الشيعة: ١٢/ ٦، ح٥.

[٣٨] مشكاة الأنوار: ١٤٦؛ بحار الأنوار: ٧٤/ ١٦٢.

[٣٩] الإمام الصادق والمذاهب الاربعة، أسد حيدر: ٤/ ٩٢- ٩٣.

المصادر

- **القرآن الكريم .**

١-الأئمة الاثنا عشر (دراسة تحليلية)، عادل الأديب، الدار الإسلامية، ط١، ١٣٩٩هـ.

٢-الاحتجاج، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، تحقيق محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م.

٣-الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، إيران- قم ، ١٤١٦هـ.

٤-الإسلام يقود الحياة، محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٥-أصول الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، دار الأضواء، بيروت- لبنان ، تسعة أجزاء، ١٩٨٥م.

٦-أضواء على عقائد الشيعة الإمامية، جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ط١، قم - إيران، ١٤٢١هـ.
٧-أعلام الهداية، لجنة التأليف، الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت، ط١، إيران- قم ، ١٤٢٢هـ.
٨-أعيان الشيعة، محسن الأمين، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف، بيروت- لبنان، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٩-الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، أسد حيدر ، منشورات مكتبة الصدر، ط٣، إيران- طهران، ١٤١١هـ.
١٠- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ١١٠ جزء، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٣م.
١١- بحوث في الملل والنِحل، جعفر السبحاني، ط٢، اللجنة الإدارية للحوزة العلمية، إيران- قم ، ١٩٨٨م.
١٢- تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، حسن الصدر، مؤسسة السبطين العالمية، ط١، إيران- قم ، ١٤٢٧هـ.
١٣- تحف العقول، أبو محمد الحسن بن علي بن شعبة الحرّاني، مؤسسة طليعة النور، ط١، إيران - قم ، ٢٠٠٣م.
١٤- الإسلام وإيران، مرتضى المطهري، ترجمة أحمد العبيدي، مؤسسة الهدى، إيران- طهران،٢٠٠٠م .
١٥- الفصول المهمة في أصول الأئمة، الحُرّ العاملي، المكتبة والمطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٨هـ.
١٦- المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر- القاهرة، د. ت.
١٧- مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، أبو الفضل علي الطبرسي، دار الحديث، ط١، إيران- قم ، ١٤٠٨هـ.

١٨- الملل والنحل، عبد الكريم الشهرستاني، أربعة أجزاء، مكتبة السلام العالمية، القاهرة- مصر، د. ت.
١٩- مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب محمد بن علي الحلبي المازندراني، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
٢٠- موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام ، باقر شريف القرشي، دار المعروف، ط١، إيران- قم ، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٢١- وسائل الشيعة، الحُرّ العاملي، في عشرين مجلد، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣م.

Imam Sadik role in establishing the Characterists of Islamic Though

Assi. Prof. Dr. Amir Abdul Ameer Hatem
College of Education (Ibn Rushd)
Quranic Sciences Department

Summarization:

The Conduct of the twelfth Aima of Ahlulbait (God bless them) represents the real way of Islam After the prophet Age, the study of their life in a comprehensive way recovers a comprehensive image of the real Islamic movement which begins his way into the deeps of the nation after its shine seems to be fade away after the prophet Mohammed's (God bless him) death, So the Aima Started working in waking up the nation and moving its power towards finding and developing the message comprehension of Sharia and the prophet's (God bless him) movement and his bless revolution without going out of the way of univers lines which controle the behaviour of leading and the whole nation.

This research sepecializes in studying Imam Sadik role in establishing the characteristic of Islamic thought, all the Islamic Sects should be thankfull to his scienc and philology, So the humam Civilization in our age . finds it self shades under his sciences and knowledge's.

I devided this study to the introduction and three objects of research and conclusion. I talked in the introduction about Imam Sadik's (God bless him) position in muslimes life, because of his devine sciences that God gave him and rose him to upper stages of the comprehension of the religious and secular sciences.

Then I dealt in the first object of research with the role of Imam sadik in establishing ahuge Islamic University which had the great role in rising the Islamic religion characteristic. Then in the second object of reseach which concenterate on Imam Sadik role in establishing the characteristic of Islamic and political thought and shapping its rules according to the every stage of life.

In the third object of research I delt with Imam Sadik's role in establishing the characteristic of Islamic social thought, and making adevine society full of real justice and brotherhood, and making good people which real Islamic groundworks depend on.

And in the Conclusion I put the more important results that I reached in my study.